فى المـارستان

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

" ينتقل اليوم طلبة المعهد الجنـائى والمحامون تحت التمرين صحبة أسـتاذهم الدكتور محجوب ثابت لزيارة مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية " .

ولم أكد أطلع على هذا النبأ حتى ألقيت بالصحيفة جانبا وغادرت مكتبي مهرولا إلى الخارج وراع زميل ما شهد على من تغير فعدا خلفى يسألنى ما الخطب ، قلت خيرا ، قال " ولم تعد و إذن والى أين أنت منطلق ؟ " قلت الى مستشفى الأمراض العقلية ... الى المـارستان ! .

تقدموا يا رفاق :

وسار الدكتور محجوب ثابت الذى لاقانا عند مدخل المستشفى بالعباسية وسرنا جميعا حوله حتى اذا لمحنى مد يده فأخرجنى من بين الجمع وقدمنى الى الزائرين قائلا " لقد قدر أن ترافقنا صحيفة الشؤون الاجتماعيـة فى جولتنا اليوم بين العقلاء " . قلت " تقصدها جولة العقلاء بين المرضى التعساء " وهنا رأيت الدكتور يهبط بوهاد جبينه الى مقلته و يرتق بانجاد لحيته الوقورة حتى شارب يه . ثم يقول وهو يتخلل بأصابعه أهداب خصـلة خلفها الشيب : " لقد أخطأت يا عبد الكريم وأمعنت واجترأت وافتريت . إنها يا بنى جولة التعسـاء بين السعداء — لقد سعدوا باعتزال عالمكم ونعموا بالبعد عنكم " .

ولاقانا مدير مستشفيات الأمراض العقلية الدكتور الحولى بك أجمل لقاء ومضى يطلعنا من أمر المستشفى وتاريخه والمرض وأعراضه وأسبابه .

وتقدم الدكتور رفعت المـازنى الذى تكفل بمصـاحبتنا الى أحد الأبواب ففتحه فاذا بنا نواجه حيشا كبيرا من هؤلاء المساكين الذين كتب عليهم الشـقاء فذهبت الأحداث بأحلامهم ، شيوخ وشبان ليس ببياتهم ولا فى أحوالهم ما يفرقهم عن غيرهم سوى ما يراه المتأمل فى رؤوسهم المطرقة أو عيونهم المحدقة من شرود وجمود ووقفت فى القوم بين مقدم ومحجم أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، وكيف آمن الأذى وأنا بين من فقدوا شـعورهم وأفقدوا قيادة نفسهم ؟ غير أن خوفى سرعان ما تلاشى حين رأيت الزوار يسيرون فى غير مبالاة ، ها نحن نتوسط النزلاء التعساء إنهم يتقاطرون علينا من كل صوب مهللين مكبرين فى جلبـة يضج بها المكان . هذا يقبل مسرعا رافعا يده بالتحية ، وذاك يقف جامدا فى خوف وارتياب ، وثالث يهرول بين جماعة تهتف معه باسم الزعماء الكرام والأبطال العظام " ودنا

منى شاب من النزلاء يسألنى من يكون الزوار ، قلت وأنا أتراجع خطوة بعد خطوة "طلبة . ومحامون" فيتساءل النزيل الكريم فى ثبات "وليه ما غيرتوش هدومكم ولبستوا زينا ما دام حا تفضلوا معانا" .

واخترق الصفوف نزيل تقدم فى تعاظم إلى الدكتور محجوب يمطره وابلا من الأسئلة والانتقادات فى ثبات وتعقل أدهشنا أن نجدهما فى هـذا المكان . فقال : "ما شاء الله يادكتور . كل يوم جايب لنا شوية عيال وجى . إحنا فرجه ولا إيه" ثم تابع قوله وهـو يربت على كتف الدكتور "لكن انت ازاى بتشتغل لغاية دلوقت ... انته مغالطهم فى العمر ولا الحكومة ناسياك .. والله شبت وبان عليك العجز يا ابنى يا محجوب .. فين أيام مسجد وصيف وفين البيبه وفين حمارة مكسوينى وفين العمال وزعامة العمال... الله يرحم أيام زمان".

وهنا حضر الطعام وكان من الفول المدمس المختلط بفتات الخبز . وما أن رأى محدثنا الزين الخادم يحمله حتى هجم عليه واختطف وعاءه فى لهفـة ثم افترش الأرض ممسكا بأحدنا ومصرا على أن يشاركه طعامه . وإذا اعتذر الزائر ثار النزيل وهاج وكاد يسقط الزائر لولا أن خلصه الحارس من قبضته وعزل المريض . ومن ركن من أركان الفناء سارع إلينا شيخ من النزلاء رافعا يمناه وممسكا قصاصة صحيفة بالية بيسراه وهو يصيح : قفوا قليلا . اسمعوا وعوا . وإذا وعيتم فاتعظوا ... إليكم قصيدة ... قصيدة مجيدة" وهاج الجميع وماجوا ولكن صاحبنا غطى بصوته المدوى عليهم . ومضى ينشدنا صائحا :

قل للوفود التى نهوى تدانيها الدار يسعدها أن تمكثوا فيها

وإذ خشينا أن تشيع الدعوة بين المضيفين فيلزمونا نزلا غير أمين بارحنا المكان مولين مسرعين ، وأكثر نزلاء هذا القسم من المصابين بضعف عقلى وراثى Mental defect . وبينهم مرضى يسود بعضهم الحزن ويعلو البعض مسرورين . وهم مصابون بما يسمى لوثة المرح والاكتئاب Manic - Depressive .

وفى مكان مجاور مررنا بحجرات العزل (لزنزانات) وهى تضم أتعس المرضى أجمعين ممن اشتد هياجهم حتى أصبحوا خطرا على أنفسهم وعلى غيرهم . والزنزانة حجرة ضيقة يوضع بها المريض يعلوها مصباح محاط بشبكة حديدية ولها باب محكم به فتحة صغيرة يغطيها منظار ثابت من الزجاج ليرى الحارس ما عليه المريض . ومكان هؤلاء المرضى يدوى صياحا ويمتلىء هياجا : هذا يناجى نفسه وذاك يندب هاذيا حظه . وقد امترق سمعى خطاب بليغ من كلام المنفوطى كان يردده أحد المرضى فى صوت مؤثر يستدر الرثاء والاشفاق قـد جاء فى خاتمته "فيا أيها السعـداء أعينوا التعساء وساعدوا البؤساء . ارحموا من فى الأرض يرحكم من فى السماء". ويميل أكثر نزلاء الأفنية الى نزع ملابسهم . ويعلل مرافقنا الدكتور المـازنى بذلك بأنهم يشعرون بالدفء ولعل خلع ملابسهم راجع إلى عامل نفسانى هو تمثيل محاولة التخلص من مضجعهم الأول أو من ذكر الحادث الذى أودى بعقولهم فى صورة نزع الملابس والتخلص

من القيود. وأكثر هؤلاء مصابون بما يسمى Hop phrenia ومن أعراضه الهياج الشديد والصخب والهرسة البصرية والسمعية — والهلوسة هي تصور أشياء لا وجود لها فترى المريض يتحدث إلى الفضاء أو يجيب ويناقش كلاما غير حادث .

عقلاء في ثياب المجانين :

ولعل أكثر ما يستدر الرحمة ويدعو إلى الاشفاق ، هذا الفريق التعس من النزلاء ممن اقحموا في هذا المكان لطارئ عارض ، أو من تكون نوباتهم قد زالت ولكنها محتملة التكرر والحدوث . هؤلاء كما رأيناهم عقلاء لا نقص فيهم . تراهم هادئين مسالمين ، تحدثهم فيحدثونك في تعقل وثبات . لا قيناهم وتحدثنا اليهم فما شعرنا بأي فارق . هذه مزارع كان عمدة لبلدته وله ضيعة يروى لك حياته في يقظة واطمئنان ويرجع أسباب ادخاله المستشفى إلى جشع ذويه الذين أرادوا من اتهامه بالعته أن يحجروا على ماله لينتفعوا به . وذاك علام صغير يحدثك في هدوء عن أمره فيعزو إدخاله المستشفى إلى حمى أصابته فأذهلته وقد ذكر لنا اسمه واسم مدرسته التي يتعلم بها واسم أبيه وعنوانه . على أن أعجب ما استلفت أنظارنا شاب حسن البزة . مرتب الشعر وقد جلس إلى سريره يقلب دفترا بين يديه . حييت الشاب فحيانا في أدب واستحياء ثم دنوت والدكتور محجوب منه نستطلع أمره ونقلب ما بيديه ونطالع فيما كتب صورة نفسه . فاذا نحن حيال شاب ذكي بل وبالغ في الذكاء هذه قصة من تأليفه تقرؤه فتعجب كيف يحشر هذا المسكين بين المجانين . أسلوب قوي وتصوير بديع في عبارات لغة الإحكام . وإذا سألنا الشاب عما أتى به إلى هذا المكان أخبرنا أنه كان طالبا بمعهد عال وأنه بعواية اخوان السوء استحوذ الفساد فضيق والده وهو رجل فاضل معروف الخناق على ولده يمنعه عن المكر أو يمنع المكر عنه فكان أن انفجر الشاب وأتى عملا لا يصدر عن ذي حلم مما ألزم الأب حمل ابنه إلى هذا المكان .

في حضرة الامبراطور :

وفي مكان آخر شاهدنا بجانب من المرضى استوقفنا فيهم شيخ توج هامته ببضع ريشات وقد وضع يديه خلف ظهره وهو أندونا منه حتى انهال علينا لوما وتقريعا « ازاى جيتم هنا من غير إذن وازاى يا جدع انت (وأشار الى الدكتور المسئول) ازاى سمحت لهم بالدخول في السراى من غير اذن مناسوناب الدكتور محجوب عنا في تقديم الاعتذار لسمو الامبراطور واستدرك الدكتور المسئول الموقف قائلا « إن الرعية إذا أتت يا مولانا لتقديم فروض الطاعة لسدته الكريمة . وهنا تنازل الامبراطور بإعلاء ارضا ودعانا لافتراش الأرض فاعتذرنا شاكرين واعدين بالعودة للتشرف بالمقابلة السامية في فرصة أخرى .

ومرضى هذا النوع مصابون بما يسمى مرض الزهو Paranoia

و إن من أشد ما شاهدنا إيلاما للنفس بؤسهم سودانى كبير كان من خيرة رجال وادى النيل ولكن ما أصابه فى كفاحه لوطنه ناء عقله دون احتماله . سألنا السيد عن حاله فحدثنا فى ثبات يشوبه بعض الذهول إنه بخير وأبان ارتياحه لما يلقاه من موظفى المستشفى من العناية وذكر أنه لا يجب أن يجد ذلك فى مصر التى يرى فيها جزءا من وطنه العزيز .

وفى مكان آخر شاهدنا بعض المرضى من ضحايا المخدرات والمسكرات كما رأينا بعض ضحايا ضربات الحياة من تاجر أودى إفلاسه بعقله أو موظف ذهب برشده فقد ما بعهدته ، ومنهم عدد من ضحايا الإفراط الجنسى ممن تبين حالهم من حديثهم الذى لا يدور إلا عن المرأة وعما يكنونه أو يضمرونه لها من حب أو بغض . و بين المرضى بعض مجانين السجن Prison Specimens ممن ذهبت شدة المعاملة بالسجون بعقولهم . كما وأن فيهم عددا من ضحايا البلاجرا الناشئة من سوء التغذية وأكثر مرضى البلاجرا يقيمون بمستشفى الخانقاه . هذا الى مرضى الجنون الاختلاطى المتسبب من أمراض الزهرى والسل والحميات والشيخوخة وتصلب الشرايين .

فى قسم النساء :

وانتقلنا إلى الجناح الآخر من المستشفى وهو قسم النساء . و يضم هذا القسم نيفا وألف مريضة منتشرات فى مبانيه المتناثرة ولا يكاد يختلف حالهن عن حال نظرائهن من الرجال من حيث الأسباب والأعراض ، سوى أن بينهن عددا من المصابات بالجنون الاختلاطى وهو الجنون المتسبب من السموم الداخلية من الحمل والوضع والأمراض الخبيثة . و بينهن أيضا عدد من ضحايا الفشل فى الصلات الزوجية الناتجة عن البذل الطويل أو سوء معاملة الزوج أو غير ذلك . وقد شاهدنا سيدة ممسكة بحزمة من القش تكنس بها الأرض دون أن أن يكون على الأرض ما يكنس . وعلمنا أنها مثابرة على هذا العمل والتعليل السيكولوجى لعملها أنها تكبت ذكرى بغيضة لحادث تريد أن تمحوه فتمثل ما يمثلها بالتراب الذى تعمل على ابعاده وكنسه .

الأمراض العقلية فى مصر وأسباب تلافيها وعلاجها :

اذا راعينا أن النسبة المئوية المقدرة للاصابات بالجنون هى أربعة فى الألف من السكان عامة وجدنا أننا فى حاجة الى مستشفيات تتسع لسبعين ألف مريض فاذا أضفنا الى ذلك أثر سوء حالة الشعب الاقتصادية وما تسببه من أمراض كالبلاجرا والسل والتعرض للامراض الخبيثة مما له أثر فى مضاعفة عدد مرضى العقول وجدنا أن لدينا ما لا يقل عن مائة وعشرين ألف مجنون فى حين أن مستشفيى الحكومة بالعباسية والخانقاه لا يتسعان لأكثر من ٣٥٠٠ مريض — وضيق المستشفيات عامة ومستشفيات الأمراض العقلية خاصة ظاهرة غريبة

فى هذا البلد ولطالما نادى المصلحون بوجوب مضاعفة عدد المستشفيات والعمل على إكثار من الأطباء إذ المفروض أن يكون لكل ألف ساكن طبيب أى أنه يلزمنا سبعة عشر ألف طبيب فى حين أن عدد الأطباء لا يتجاوز الأربعة آلاف — أما عن أطباء العقل فهم من القلة بمكان — ونحن لا نرى غضاضة فيما إذا كان توسيع المستشفيات يتوقف على زيادة الأطباء — لا نرى غضاضة فى أن نستعين بأطباء أجانب حتى يأتى اليوم الذى يتوفر فيه العدد اللازم من المصريين . أما مستشفيات الأمراض العقلية فقد بحت الأصوات فى المطالبة بتوسيعها وقد سبق — أن نادى الدكتور وارنوك الذى كان مديرا للامراض العقلية بمصر بوجوب توسيع المستشفيات و إنشاء مستشفيين واحد بالاسكندرية وآخر بأسيوط وقد مضى على هـذا الطلب أكثر من خمس وعشرين سنة دون أن يهتم بتنفيذه رغم تضاعف عدد المرضى اليوم عن ذى قبل — هذا عن العلاج أما الوقاية وهذا دونما المكان الأول فلا سبيل إليها إلا بعلاج أدوائنا الاجتماعية الكبرى : الفقر والمرض والجهل فالبلاجرا الناشئة من سوء التغذية تسبب إصابة عدد كبير من نزلاء المستشفيات العقلية وجنون البلاجرا من أخطر أنواع الجنون إذ ثبت أن بين كل ١٥ قاتلا مجنونا ثمانية مصابين بالبلاجرا . كذلك كان الفقر من أقوى مسببات الجنون لما يخلفه ضيق سبل العيش فى وجوه الشباب من إحجام عن الزواج وتعرض للأمراض السرية التى لها أثر وراثى فى الدم وفى المح هـذا إلى تعرضهم للتشرد الجنسى وادمان المسكر والمخدر وتفاقم مشكلتى الطلاق وتعدد الزوجات والارهاق البـدنى والذهنى لتحصيل الرزق وسوء الحالة الصحية بالمصانع وصخب المدن المفضى للأعصاب والجهل الفاشى والمعتقدات الخاطئة التى تبعـد الناس عن جادة العلاج القويم كل هؤلاء مشكلات تؤدى إلى المرض العقلى ولا مناص لتخفيف وطأته من الاهتمام بحلها وعلاجها .

آراء لخير مرضى العقول :

آفة التشريع فى هذا البلد أننا حين نلمس نقصا نسارع إلى سن قانون نشهر فيه سيف العقاب على رقاب الناس قبل أن نهيئ لهم سبيل الخلاص مما يوقع تحت طائلة العقاب — فقـد أصدرنا مثلا قانون تحريم التسول ومضينا فى تنفيذه قبل أن نعـد للعاجزين الملاجئ الكافية التى يأوون اليها — وقد عرضنا لهذا القانون يوم أن زرنا الملاجئ و بينا أنه ما كان ينبغى أن يصدر القانون قبل إعداد الملاجئ — كذلك الحال بصدد قانون عزل المصابين بالأمراض العقلية الذى صدر أخيرا فليس يجدى أن نشرع بالعزل قبل أن نعد المعازل والمستشفيان الحاليان لا يتسعان لعشر معشار مرضى العقول بالبلد، هذا إلى أن هذين المستشفيين مجبران حالا على إخراج بعض المرضى قبـل اتمام علاجهم وغبة فى اتساع المحل لمن هم فى حاجة أشد وشأنهما فى هذا شأن كل مستشفيات الحكومة .

ويجدر بنا قبل أن ننهى هذا البحث أن نوجه أنظار ولاة الأمور إلى ملاحظتين الأولى خاصـة بالمرضى والأخيرة تتعلق بالموظفين القائمين بأمرهم — أما المرضى فقـد لاحظنا

افتقارهم إلى عناية أكثر من حيث العلاج والطعام فالعلاج محدود جدا بل يكاد يقصر الدور على عزلهم وعلى التخفيف عنهم وللأطباء عذرهم فى هذا إذا راعينا قلة عددهم وقد قيل لى إن هناك فحصا دوريا يعمل كل سنة وكم كان ينبغى أن يعمل هذا الفحص شهريا ليكون أجدى وانفع — كما وأن المستشفى يصرف للمرضى ذات الأطعمة العادية التى تصرف فى المستشفيات الأخرى إلا تغيير طفيف فى قليل من الحالات الخاصة وكم كان يجمل لو يراعى فى اختيار الأطعمة اشتمالها على العناصر الفعالة فى علاج المرض حبذا لو أعطى كل مريض ما يتفق وحالته — وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نشير إلى حاجة البلد إلى علاج الأمراض النفسية و إلى الاستعانة فى علاج الأمراض العقلية بالعيادات السيكولوجيه — ذلك بأن علم النفس الحديث قد تطور فى هذا العصر تطورا كبيرا وأصبح التحليل النفسى والتوجيه سبيلا ناجعا لعلاج الكثير من الأمراض والعلل وخاصة فى محيط حياة المدنية الصاخبة — وليس يكفى أن نقيم هذه المستشفيات أو بتعبير أصح تلك المعازل إنما نريد أن تضم هذه المستشفيات العيادات النفسية والمعامل اللازمة لها وأن تقتفى فى علاج مرضانا خطى علماء النفس وأطباء العقل لنفيد من كل جديد .

وملاحظتنا الأخيرة التى نسوقها أن بيدهم الأمر تتعلق بما ينبغى نحو هؤلاء الذين حملوا عبء رعاية هذا الجيش من المساكين من أطباء ومستخدمين — فالأطباء مرهقون بالعمل بسبب قلتهم وحسبنا أن نذكر أن مستشفى العباسية به ستة أطباء يناط ببعضهم رعاية ٦٠٠ ستمائة مريض وليس من شك فى أن وقت الطبيب لن يتسع بحال لأكثر من المرور والمراقبة الصحية .

أما القائمون بخدمة المرضى من رجال وسيدات فهم أجدر الكل بالعناية فقد شاهدناهم يقاسون أشد ما يقاسى انسان فى عمله وعندنا أن أولى مبادئ الانصاف أن يصرف لهؤلاء ولحضرات الأطباء أيضا بدل خطر يعادل بدل العدوى فى باقى المستشفيات ذلك بأن المجهود الذى يبذله هؤلاء فى عملهم والأذى الذى يتعرضون له والمشقة التى يلقونها يوميا فى المواصلات دون أن توفر لهم المساكن حول مستشفاهم كل هذا يستحق الأجر والتعويض .

هذا مجمل ما رأيناه فى جولتنا ونحن لا نشك فى أن ولاة الأمور سيرون هؤلاء المرضى ومن يقوم برعايتهم ما هم جديرون به من عناية ورعاية ما

محمد عبد الكريم